صدر قديماً

اللحن من منظور مغاير

رمضان عبد التواب
كيف يطوّر العامّة اللغة

تصويب

لمسةُ التكوين

مصطفى فصفصي

في الأفرشكو affresco العبقريّ لميكيل أنجلو في La Cappella Sistina، تفصيلٌ أيقونيٌّ ساطع. تجسيدٌ شاعريّ مدهِش لخركة، أو بشكل أدقّ ربّما، للَمْسة التّكوين. اللّمْس كفِعل أنْسَنة للحياة.

في الخَلْقيّة ما يُشْبِهُ الفَجْرَ الأوّل للعالم. يجلس آدم على ما يشبه حافة الهاوية ويمدّ إصبعاً مرتعِشاً للوجود، منتظراً وميضاً يسري في أديمه وشرارةً يولد منها وفيها. ولها. في الفجوة بين الإصبعين يكْمُن الشّوق. شوقُ لحياةٍ إنسانيّة تتجلّى في الحُلم والاحتمال، واللّمس.

حياة تنتظر قلباً واسعاً ورحيماً يَمَسُّها لكي تجِدَ اسمَها. وذات تنتظر سرّاً يودَعُ فيها لكي تُعْلَن. وتُحْكى.

حياة بلا اسم لا يعوّل عليها وذات بلا سرّ لا يعوّل عليها. حياة بلا اسْم هي حياةٌ شاغرة، لا يَسكنُها أحد. حياةٌ بلا سرّ هي جِدارٌ غير مكتمل على ما كان يمكن أن يكون ولم يكُنْ. هي شُتات أعضاءٍ مشرذمة تنتظر لمسةً حنونةً وقَوِيّة تلمّ شملَها، وتشدّ أزرَها وتؤاخي بينها وبين المستحيل الجميل، أي الوجود باعتباره أُحْجِيةً فاتِنة.

(شاعر واختصاصي نفسي عِيادي من فلسطين)

محمود منير

في كتابه «لحن العامّة والتطور اللغوي»، الذي صدر عام 1967، عاد اللغوي المصري، الذي تحل ذكرى ميلاده اليوم، إلى عشرات المؤلّفات في التراث العربي والعصر الحديث حول اللحن، مع تصحيحه لأخطاء العديد من المستشرقين والباحثين العرب الذين تناولوا تلك الكتب دون أن يغفل ما وضعه القدامى من أفكار ومفاهيم لا يزال بعضها قابلاً للتجديد والبناء عليه، موظّفاً معارفه المتعددة في اللغويات المقارنة والصناعة المعجمية واللغات السامية ومدارس تحقيق التراث الأوروبية، مع امتلاكه مقدرات الاستنتاج والاستدلال في ربط الجديد بالقديم.

في كتابه «لحن العامّة والتطور اللغوي»، الذي صدرت طبعته الأولى عن «دار المعارف» عام 1967، قارب عبد التواب التغيّر المستمر في اللغة العربية بفعل اجتماع عوامل مختلفة مثل انتقالها من الأسلاف إلى الأخلاف، وتأثرها بلغات أخرى، وسياقات اجتماعية ونفسية وبيئية، ولأسباب تتعلّق بما يُنتج من أدب، إلى جانب التقدم العلمي والحضاري بما يجلبه من تأثيرات.

ويرى عبد التواب أن «مهمّة عالم اللغة في العصر الحديث ليست تقييم اللغة، والحكم لها أو عليها، بل مهمته دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها دراسة وصفية، محاولاً تقرير الواقع، والكشف عن السرّ الذي يكمن وراء هذا الواقع»، مستنداً في رؤيته لبحث تطوّر العربية إلى أن اللغة لا تسير على نحو الصدفة المطلقة، ولا تنتقل على السنة الناس على نحو عشوائي، بل تحكمها «قوانين تكاد ترقى إلى مكانة القوانين الطبيعية ثباتاً وقوة، ولا يعني جهلنا بهذه القوانين في بعض الأحيان أنها غير موجودة، ومهمة العلم هي البحث عن هذه القوانين، يكتشفها ولا يخترعها».

> تتطوّر اللغة من لحْن العامة وانحراف لهجاتهم

يطرح الكتاب تساؤلات أساسية مثل: كيف تكوّنت العامية؟ ولماذا تكوّنت؟ وماذا يُعنى بكلمة الفصحى؟ وما المقاييس التي تخص أحكامنا لها في الحالتين، وهل يتحدث العامة بكلامهم كيفما اتفق دون قاعدة أو قانون؟ وما السرّ في انحرافهم عن الفصحى؟

ولكن هل كان اللحن يعني الخطأ في اللغة؟ يوضّح صاحب كتاب «في قواعد الساميات: العبرية والسريانية والحبشية» أن الأمر استقرّ على هذه الدلالة في مرحلة متأخرة، حيث شغل الحجاج بن يوسف الثقفي النحاة على مرّ قرون في شرح بيت للشاعر مالك بن أسماء يقول فيه: منطقٌ صائب وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحناً»، والذي رأى أن اللحن لا يفيد الخروج عن الصواب، إنما هو إشارة إلى براعة في اللغة، ويوضّح أن اللحن احتمل لدى العرب ستّة معانٍ هي: اللغة أو اللهجة، والتطريب وترجيع الصوت، والفطنة والفهم، والتعريض والتورية، والمعنى والفحوى والمذهب والطريقة، قبل أن يستقرّ اللغويون القدامى والمحدثون على اعتباره مخالفة العامية للفصحى في الأصوات، أو في الصيغ، أو في تركيب الكلام وحركات الإعراب، أو في دلالة الألفاظ. يورد الباحث أمثلة عديد عن حدوث الانقلابات الصوتية نتيجة التأثر باللغات القديمة كالسريانية، أو العلّة في لفظ القاف همزة حيث استحشنها أهل القاهرة ثم سادت لدى العامة وانتقلت إلى مدن مثل دمشق والقدس بحسب المستشرق الألماني جوتهلف برجستريسر، أو نتيجة لأخطاء في السمع كالفهم والنوم.

أهمّ ما يدرسه عبد التواب في كتابه هو العلاقة بين اللحن وتطور اللغة، حيث إن هناك قوانين عديدة تحكم لفظ الكلمات مثل التماثل والتخالف، وأبرزها نظرية السهولة والتيسير والتي تفترض أن اللغة تحاول التخلّص من الأصوات العسيرة في كثير من الأحيان مثل يَوم بدلاً من يَوْم وبِيت بدلاً من بَيْت، ومنها اندثار الأصوات الأسنانية في اللغة وهي الذال والظاء والثاء كقول دهب وزكر بدلاً من ذكر وضَل محل ظلّ، والقلب المكاني في ملعقة بدل معلقة وجواز بدل زواج.

كما يبيّن صاحب كتاب «التذكير والتأنيث في اللغة» (1976) قوانين تطور الدلالة مثل استخدام مفردة العيش بدل الخبز والحريم للدلالة على النساء، أو كيف حلّت «كماش» الفارسية وقلبت الكاف قافاً لتدل على النسيج وتحلّ محلّ كلمة قماش التي كانت تعني أرادل الناس، وكيف قُلب ترتيب الجملة «ضَرب محمد علياً» لدى العامة لتصبح «محمد ضرب علي».

ومن خلال دراسته التطبيقية لمئات الأمثلة، صاغ عبد التواب العديد من المفاهيم والمصطلحات التي يستخدمها الباحثون في دراساتهم اللغوية اليوم، ومنها الركام اللغوي للظواهر المندثرة، وانكماش الأصوات المركبة، وانحلال الصوت المزدوج، والحذلقة اللغوية، والبلى اللفظي، والاشتقاق الشعبي، وغيرها.

رمضان عبد التواب في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

في الترجمة والتحقيق أيضاً

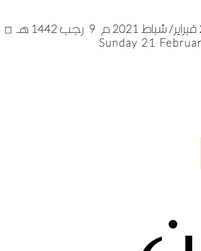

إضافة إلى مؤلّفاته التي تزيد عن العشرة، ترجم عبد التواب عدداً من الكتب الأجنبية؛ مثل «اللغات السامية» (1963) لـ تيودور نولدكه، و«الأمثال العربية القديمة» (1971) لـ رودلف زلهايم، و«تاريخ الادب العربي» (1957) لـ كارل بروكلمان، و«العربية: دراسة في اللغات واللهجات والأساليب» (1980) لـ يوهان فك، كما حقّق أزيد من ثلاثين كتاباً؛ منه بينها: «البلاغة» للمبرد (1962)، و«ما تلحن فيه العامة» للكسائي (1982).

قراءة

رشيد الضعيف في الأرض التي تُسمّى فلسطين
الأميرة والخاتم صناعة الصور

نحن هنا أمام عمل محبوك بحياكة متواترة من خيارات وأساليب شتّى، ويطلّ على آفاق وحقول مختلفة، تُدمَج بقدرة كافية على الاعتصار والتكثيف

عباس بيضون

لا نستطيع بسهولة أن نصنّف «الأميرة والخاتم» روايةَ رشيد الضعيف الأخيرة، داخل عمله الروائي. إنها جديدة عليه، لكنها ليست المرّة الأولى التي يفاجئنا فيها بعمل جديد عليه. الواضح أنّ التجريب يطبع هذا العمل، فقد سبق للضعيف أن أضاف إليه انماطاً عدّة. هناك عملٌ للأطفال وروايات تاريخية، واليوم يطلع علينا برواية قد يسعنا أن نسمّيها رواية للأطفال أو الفتيان، لكن هذا لا يكفي، فالرواية تلهث خلف ما فيها من صُوَر، لا يكاد يمرّ مقطع إلّا ويطلع علينا بصورة.

قد يدعونا هذا إلى أن نتذكّر من بعيد رواية «أليس في بلاد العجائب»، لكننا لا نتوقّف هنا، فنحن نتذكّر أيضاً حكايا مثل «الأميرة النائمة». وبعيداً عن ذلك، قد نتذكّر القصص القرآني، أهل الكهف، كما يرشدنا الروائي عن قصد إلى فلسطين، التي وحدها تتسنّى بين الأماكن، وإلى «السيد» الذي لا يخفى مرجعه. هنا يتعمّد الروائي أن يسمّي، أو يكاد، المسيح.

نحن هنا أمام عمل محبوك بحياكة متواترة من خيارات وأساليب شتّى، ويطلّ على آفاق وحقول مختلفة، يقدر على دمجها في عمله، بدءاً من حكايا الفتيان، من الملك والملكة، ليمضي في مستويات ومنعطفات شتّى، بقدرة كافية على الاعتصار والتكثيف، وعلى دغم واستخلاص اغراض مختلفة، وأهمّ من ذلك قدرة على صناعة الصُّور. لا يكاد يمرّ سطر أو اكثر بدون الوقوع على صورة أو النفاذ إلى صورة. بحيث يبدو العمل وكأنه أخذ كثيراً من جهد المؤلّف، وسيأخذ كثيراً من جهد القارئ، فالعمل مركّز مقطّر، وهو بهذه الصفة يمسك الأنفاس، ويستدعي اللهاث خلف الصور والتفاصيل.

الرواية، كما قلنا، تبدأ كحكاية للفتيان، من الملك والملكة. في هذه البداية نقع على أولى لوحات العمل: اكتشاف الغروب، والغروب هنا سحري، إنه الوادي الذي يبتلع الشمس. نحن هنا أمام الملك والملكة في رواية تكاد تكون قائمة بذاتها، لكن «الأميرة والخاتم» رواية من روايات. إذا خلصنا إلى الغروب فستبدأ الرواية الثانية وهي رواية «الأميرة النائمة» «التي يقدّر العارفون أنها ستنام طويلاً لتصل إلى محبوبها»، وبالفعل تنام الأميرة أعواماً، بل وقروناً بحالها لتصل بعد أن تستيقظ إلى رؤيا «القدم المعشوشبة، التي تقتفيها بعد أن استيقظت، لتصل بعد رحلة طويلة في المفازات، إلى فلسطين التي يسمّيها المؤلّف هذه المرة عامداً، ولتصل في فلسطين إلى «السيّد» الذي لن يكون سوى المعلّم. هكذا نصل إلى المسيح الذي لن يكون محبوبها الموعود، إذ إنه ليس لها وحدها ولن يكون. ستقف هنا الرواية الثانية التي يمكننا أن نطلق عليها «الأميرة النائمة»، أما الرواية الثالثة والأخيرة فستكون هذه المرّة البحث عن المحبوب وإيجاده، لكن محور هذه الرواية هو الخاتم الذي تبتلعه الصخرة ويبقى مدفوناً فيها في الأرض التي تُسمّى فلسطين.

لا نعرف كم في ذلك من إيعاز سياسي، فليست هذه التسمية عبثاً، وليست تسمية السيّد والمعلّم عبثاً، ولا يبقى الخاتم في صخرة فلسطين عبثاً. قد يكون ذلك تعبيراً بالصور عن المسألة الفلسطينية، تعبيراً لا تخفى شاعريته أو ما فيه من شعر. ليست هذه المرّة الوحيدة التي نعثر فيها على الشعر في الرواية. إذا كانت الرواية صناعة مثابرة للصور، بحيث لا يكاد يخلو منه أي سطر، فإن الرواية تكاد تكون جميعها مقطعاً فمقطعاً بل سطراً فسطراً، هما بالشعر ودنواً منه وإلماحا به.

> لا يكاد يمرّ سطر دون الوقوع على صورة أو النفاذ إلى صورة

هذا يعيدنا إلى الضعيف الشاعر كما بدأ في «حين يحلّ السيف على الصيف» أو «لا شيء يفوق الوصف»، لينتقل بعدها إلى الرواية التي اعتمد فيها لغة تناى عن الأدب، أي أنّ الشعر لم يكن ماثلاً فيها. هل يمكن أن نعتبر روايته الجديدة عودة إلى الأدب؟ هذا ما نلاحظه في لغة لا تبتعد هذه المرّة عن الاستعارة والتصوير.

قد لا تكون هذه السمة الوحيدة الجديدة التي نعثر عليها في الرواية؛ ففيها أيضاً ميل إلى التفكير، لكن من خلال السحر والأخلاق. لسنا نجد الواقع، حتى في أدق تفاصيله إلّا وهو متحوّل بالسحر. اليوميات تنقلب في الرواية مسحورة والعالم في أدق ثناياه وصغائره، يبدو وكأن السحر يسطو على كل ما فيه. إنه عالم مسحور وواقع مسحور. لكن حين نقرأ كلمة «صالح»، وحين نرى الرواية تتكلّم عن القرين، نشعر بأنّ في ذلك نوعاً من الميتافيزيق. للرواية ميتافيزيقها، نشعر به ونبقى على حافته، بدون أن يعلن وبدون أن نصل إلى تفاصيله. مع ذلك فإنّ «الرجل الصالح» هو كالسيّد والمعلّم موجود في نسخة أخلاقية، تكاد أحياناً تصل إلى افتراض دين خاص أو أخلاق خاصة.

(شاعر وروائي من لبنان)

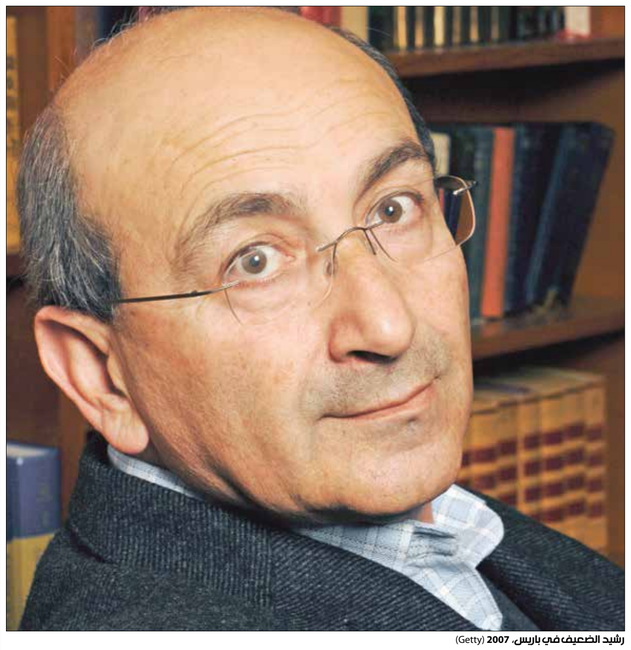

رشيد الضعيف في باريس، 2007 (Getty)

متابعة

بيت الجزائر الثقافي جدران تحتضن الفراغ
عناوين أكبر من المتن

يبدو الموقع الإلكترونيّ الجديد مجرّد إضافة شكلية في ثقافة قلّما يُسأل فيها عن مضامين «المشاريع» أو عن جدواها وعن استمراريتها

الجزائر ـ **محمد علاوة حاجي**

وهي تتصفّحُ جهازاً لوحياً في مكان بدا أنّه حديقةٌ عمومية، أعلنت وزيرة الثقافة الجزائرية، مليكة بن دودة، في شريط فيديو بُثّ قبل أيام، عن إطلاق «بيت الجزائر الثقافي»؛ وهو موقعٌ إلكتروني جديد سنقرأ على واجهته تقديماً تعريفياً تقول فيه إنّه «بوّابة تفتحها وزارة الثقافة والفنون تكثّفاً مع روح التوجّه الخاص بمدّ جسور التواصل بين مختلف مكوّنات المشهد الثقافي والارتقاء بالأداء إلى مستوى تحدّيات المرحلة والانخراط في مسارات العصر وإدماج الثقافة في الحركية المنتجة للقيم المضافة».

تبدو هذه العناوين «الكبيرة»، من قبيل «إدماج الثقافة المُنتجة للقيم المضافة»، متناغمةً مع لغة الوزيرة القادمة من الجامعة؛ حيث كانت تُدرّس مادّة الفلسفة، لكنّها أيضاً تتناغم مع خطاب رسميّ لم يَنْ يُكرّر الحديث عن «تحدّيات المرحلة والانخراط في مسارات العصر»، من دون أن يتّخذ أسباباً لذلك، مُفضّلاً بعض الشكليات التي سيبدو الحاسبُ اللوحيُّ، في حالتنا هذه، بمثابة إحالة رمزية إليها. بنقرة على الرابط www.algeriancultural‌home.dz، سنجدُ أنفسنا أمام موقع لا يختلف كثيراً، من الناحية الشكلية، عن بقيّة مواقع المؤسّسات الرسمية الجزائرية على الإنترنت؛ حتى ليُخيّل للزائر أنّ شخصاً واحداً يقف وراء تصميمها جميعاً. ثمّة في الواجهة مساحةٌ واسعةٌ تتراصّ فيها صوَرٌ لمواقع ومعالم أثرية وشخصيات ثقافية وفنية في الجزائر، يليها في الأسفل شريطٌ يضمّ سبع تبويبات هي: «المكتبات»، و«المسرح»، و«السينما»، و«الموسيقى»، و«المعارض والفنون التشكيلية»، و«التراث الثقافي»، و«فضاء الطفل»، ثمّ أسفله مجموعةٌ من المواد الموزّعة من دون ترتيب أو تبويب، وهي تتراوح بين الأخبار والإعلانات والبيانات. بتصفّح أبوابه الرئيسة، سنكتشف موقعاً يكتظّ بالأخبار الرسمية؛ وهي في مجملها مواعيد موجزة لبعض النشاطات الثقافية، أو بياناتٌ عن أنشطة الوزيرة ولقاءاتها وتصريحاتها ورسائلها التي تبعث بها مهنّئة بفوز كاتب (إنْ فاز بجائزة ثقافية خارج الجزائر حتى وإن تضاءل مستواها وانعدمت قيمتها المعنوية)، أو مُعزّية في رحيل شخصية ثقافية. في باب «السينما»، مثلاً، لن تُطالعنا مادّة أرشيفية توثّقُ للسينما الجزائرية أو تُتيح مشاهدة أفلامها... ثمّة فقط فيديو بعنوان «وزيرة الثقافة السيّدة مليكة بن دودة تهنّئ الفنانين في يومهم الوطني»، وآخر يتضمّنُ عرضاً مسرحياً موجّهاً للأطفال قدّمته جمعية محلّية في ولاية الأغواط (جنوب الجزائر). وليس واضحاً تماماً علاقةُ الشريطين بهذا الباب، وعلى أيّ أساس جرى إدراج العرض المسرحيّ فيه، وهو واحدٌ من الآف العروض المسرحية التي تُقدّم في الجزائر.

بهذا الشكل، يبدو «بيت الجزائر الثقافي» نسخةً أخرى من موقع وزارة الثقافة، وهو ما يطرح سؤالاً عن سبب إنشاء موقع إلكتروني جديد بدل تطوير الموقع الموجود.

> لماذا يُطلَق موقع إلكتروني جديد بدل تطوير موقع وزارة الثقافة؟

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

بيتٌ في القصبة بالجزائر العاصمة (ميكائيل. ت)

فعاليات

ضمن سلسلة **عن السينما والثورة**، يُنظّم «مركز خليل السكاكيني الثقافي»، عند السادسة من مساء بعد غدٍ، لقاءً عبر تطبيق «زووم» مع الكاتب والمُخرج العراقي **قاسم حول** (الصورة) حول تجربته في العمل مع «منظّمة التحرير الفلسطينية» في السبعينيّات، وتجربته في إنشاء ارشيف للافلام العراقية.

يحتضن **متحف بنك المغرب المركزي** في الرباط، حتى الثلاثين من حزيران/ يونيو المقبل، معرضاً استعادياً للفنّان المغربي الراحل **عباس صلادي** (1950 - 1992)، يضمّ ستّين لوحةً تُمثّل تجربته الفنية التي لم تستمرّ سوى 15 عاماً، وبعضُها لم يُعرض من قبل. يضمّ المعرض أيضاً اغراضاً شخصية وكتباً وصوراً نادرة وتسجيلات صوتية وملصقات لعددٍ من المعارض التي شارك فيها.

تُقيم جمعية «جسور التواصل الثقافي الجزائري»، عند السادسة من مساء الخميس المقبل، ندوةً عبر تطبيق «زوم» تحت عنوان **المسالة اللغوية في الجزائر.. الواقع والرهانات**. يُشارك في الندوة اكاديميّون وباحثون جزائريون؛ هُم: **حبيب بوحبيب**، و**خولة طالب الإبراهيمي**، و**عبد الرزاق دراري**، و**مهدي برّاشد** (الصورة).

حتى الرابع من الشهر المقبل، يتواصل في «غاليري كريم فرنسيس للفن المعاصر» بالقاهرة معرض **طيف الامل** للتشكيلية المصرية **نهال وهبي**، والذي ينقسم إلى مجموعتَين: تحضُر في الاولى كتل وتكوينات توحي بالمناظر الطبيعية والاشكال الكونية، بينما تطغى على الثانية أشكال الدموع وطبيعتها المائية المتدفقة.